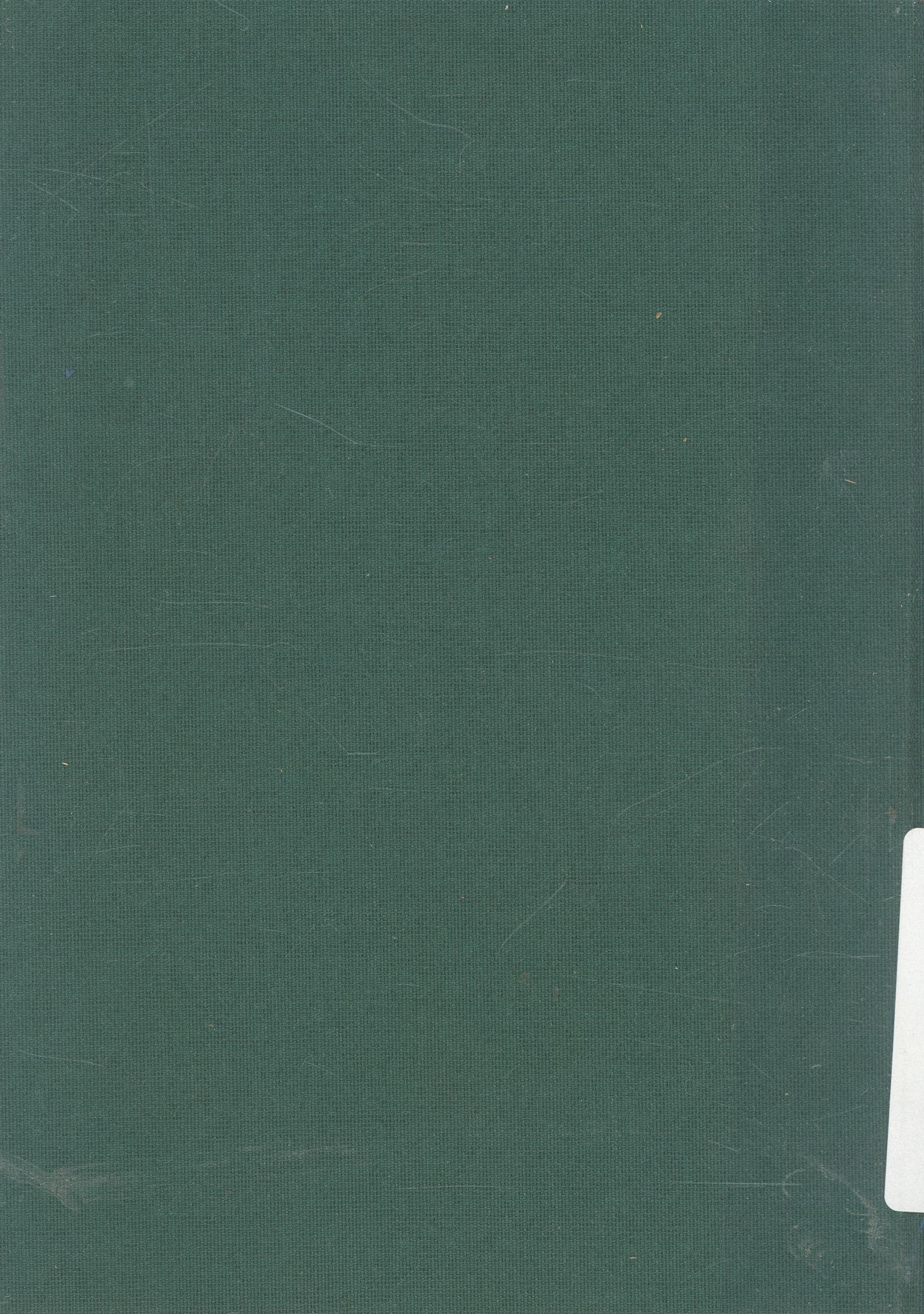


هذا كتاب تهذيب الاخلاق تأليف الشيخ
الفاضل الحكيم أبي زكريا يحيى بن
عدي قدس الله روحه
ونوّر ضريحه
آمين



قال اعلم ان الانسان من بين سائر الحيوان ذو فكر وتمييز
وهو أبدا يحب من الامور أفضلها * ومن المراتب
أشرفها * ومن المقتنيات انفسها * اذا لم يعدل عن
التمييز فى اختياره * ولم يغلبه هواه فى اتباع اغراضه
وهذا أولى ما اختاره الانسان لنفسه * ولم يقف دون بلوغ
غايته

غايته * ولم يرض بالتقصير عن نهاية تمامه وكماله * ولاجل تمام الانسان وكماله وجب أن يكون مرتاضا بمكارم الاخلاق ومحاسنها * منزها عن مساويها ومقابحها * آخذا في جميع أحواله بقوانين الفضائل * عادلا عن كل طرق الرذائل * واذا كان ذلك كذلك كان واجبا على الإنسان أن يجعل قصده اكتساب كل شيمة سليمة من المعائب ويصرف همته الى اقتناء كل خلق كريم خالص من الشوائب * وان يبذل جهده في اجتناب كل خصلة مكروهة ردئة * ويستفرغ وسعه في اطراح كل خلة مذمومة دنيئة * حتى يحوز الكمال بتهذيب اخلاقه * ويكتسي حلل الجمال بدماثة شمائله * ويباهي بحق أهل السودد والفخر * ويلحق بالذين هم من درجات النباهة والمجد * الا ان المبتدي بطلب هذه المرتبة * والراغب في ادراك هذه المنزلة * ربما خفيت عليه الخصال المستحسنة * التي يعنيه تحريها أعني اتخاذها ولم تتميز له من المستقبحة التي غرضه توقيها * فمن أجل ذلك

وجب علينا أن نقول في الاخلاق وعللها قولا نبين فيه ما الخلق وما علته * وكم أنواعه وأقسامه * وما المرضى منه المغبوط صاحبه والمتخلق به * وما المستثنى منه أعنى المستقبح الممقوت فاعله والمتوسم به ليسترشد بذلك من كانت همته تسمو الى مبارات أهل الفضل ونفسه أبيه تنبو عن مساواة أهل الدناءة والنقص * موضحين أيضا طريق الارتياض بالمحمود من أنواعه والتدرب به * وتنكب المذموم أى الاجتناب منه وتجنبه حتى يصير للمرتاض به ديدنا وعادة وسجية وطبعا * ليهتدى به من نشأ على الاخلاق السيئة والفها * وجرى على العادات الرديئة وأنس بها فيتركها ونصف أيضا الانسان التام المهذب الاخلاق المحيط بجميع المناقب الخلقية وطريقته التى يصل بها الى التمام وتحفظ عليه الكمال ليشتاق الى صورته من تشوق الى الرتبة العليا ويحن الى اجتذاب سيرته من استشرف للغاية القصوى * وقد يتنبه أيضا بما نذكره من كانت له عيوب

قد

قد اشتهرت عليه وهو مع ذلك يظن أنه في غاية الكمال * فان من هذه حالته اذا تكرر عليه ذكر الاخلاق المكروهة تيقظ لما فيه من ذلك وأنف منه واجتهد في تركه والتنزه عنه وكذلك اذا تصفح وصف الاخلاق المحمودة من كان جامعا لاكثرها عادما لبعضها اقدم الى التخلق بذلك البعض الذي هو عادم له وتاقت نفسه الى الاحاطة بجميعها * وقد ينتفع بما نذكره أيضا من كان في غاية الكمال والتمام فان المهذب الاخلاق الكامل الالات الجامع للمحاسن اذا مر بسمعه ذكر الاخلاق الجميلة والمناقب النفيسة ورأى ان تلك هي عادته وسجاياه كانت له بذلك لذة عجيبة وفرحة مبهجة كما ان الممدوح يسر اذا ذكر المادح محاسنه ونشر فضائله * وأيضا فانه اذا وجد اخلاقه مدونة في الكتب موصوفة بالحسن كان ذلك داعيا له الى الاستمرار على سيرته والاصرار على طريقته والله المسؤل أن يوفقنا للصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل

(فصل في ذكر الاخلاق)

ولنبتدئ الان بذكر الاخلاق فنقول * ان الخلق هو حال للنفس به يفعل الانسان افعاله بلا روية ولا اختيار والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعا وفي بعض الناس لا يكون الا بالرياضة والاجتهاد وقد يوجد في كثير من الناس بغير رياضة ولا تعلم كالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الاخلاق المحمودة * وكثير من الناس من يوجد فيهم ذلك * فمنهم من يصير اليه بالرياضة ومنهم من يبقى على عادته ويجرى على مسيرته فأما الاخلاق المذمومة فانها في كثير من الناس كالبخل والجبن والتشرر فان هذه العادات غالبة على أكثر الناس مالكة لهم متسلطة عليهم بل قيل لا يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه ويسلم من جميع العيوب ولكنهم يتفاضلون في ذلك كما يتفاضلون في الاخلاق المحمودة * وقد يختلف الناس ويتفاضلون في الاخلاق المحمودة الا ان المجبولين على الاخلاق الجميلة قليلون جدا والمبغضين لها كثيرون فأما المجبولون على

الاخلاق

الاخلاق السيئة فأكثر الناس فان الغالب على طبيعة
الانسان الشر وذلك ان الانسان اذا استرسل مع طبعه ولم
يستعمل الفكر ولا التمييز ولا الحياء ولا التحفظ في جميع أعماله
كان الغالب عليه أخلاق البهائم وذلك لان الانسان انما
يتميز عن البهائم بالفكر والتمييز فقط فاذا لم يستعملهما كان
مشاركا للبهائم في عاداتها والشهوات مستولية عليه والحياء
غائب عنه والغضب مستقر به والسكينة غير حاضرة عنده
والحرص والاحتشاد ديدنه والشره لا يفارقه واذا كان
الناس مطبوعون على الاخلاق الرديئة منقادون للشهوات
الدنيئة وقع الافتقار الى الشرائع والسنن والسياسات
المحمودة وعظم الانتفاع بالملوك الحسنى السيرة ليردعوا
الظالم عن ظلمه ويمنعوا الغاصب عن غصبه ويعاقبوا الفاجر
على فجوره ويقمعوا الجائر حتى يعود الى الاعتدال في جميع
أموره * أما الاخلاق المكروهة في طباع الناس فمنهم من
يتظاهر بها وينقاد اليها وهم أشرار الناس * ومنهم من

يتنبه بجودة الفكر وقوة التمييز على قبحها فيأنف منها
ويتضع لاجتنابها وذلك يكون عن طبع كريم ونفس شريفة
ومنهم من لا يتنبه لذلك الا أنه اذا نبه عليه احس بقبحه
فربما حمل نفسه على تركه * ومنهم من اذا تنبه الى ما فيه من
النقائص او نبه عليها و رام العدول عنها تعذر عليه ذلك
ولم يطاوعه طبعه ولو كان موثرا للعدول عنها مجتهدا فى
ذلك * وهذه الطائفة تحتاج ان ترشد الى طريق التدرب
والتخلق بالعادات المحمودة حتى تصير اليها على التدريج
ومن الناس من اذا تنبه على الاخلاق الرديئة او نبه عليها
فلا يحن الى تجنبها ولا تسمح نفسه بمفارقتها بل يؤثر
الاصرار عليها مع علمه برداءتها وقبحها وهذه الطائفة ليس
الى تهذيبها طريق الا بالقهر والتخويف والعقوبة
ان لم يروعها التخويف والترهيب * فأما الاخلاق المحمودة
فانها وان كانت فى بعض الناس غريزية فليست فى جميعهم
والباقين قد يمكن ان يصيروا اليها بالتدرب والرياضة
ويرتقوا

ويرتقوا اليها بالاعتياد والتألف * وقد يوجد في بعض الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة ولا الاخلاق الجميلة وذلك يكون لرداءة جوهره وخبث عنصره وهذه الطائفة من جملة الاشرار الذين لا يرجى صلاحهم * وكثير من الناس من يقبل كثيرا من الاخلاق المحمودة ويأنف طبعه عن بعضها فلا يعد هذا شريرا بل تكون رتبته في الخير والتهذيب بحسب محاسنه

(فصل في العلة الموجبة لاختلاف الاخلاق)

فأما العلة الموجبة لاختلاف الاخلاق فهي النفس وللنفس ثلاث قوى تسمى أيضا نفوسا وهي النفس الشهوانية والنفس الغضبية والنفس الناطقة وجميع الاخلاق تصدر عن هذه القوى فمنها ما يختص باحداهن ومنها ما يشترك فيها قوتان ومنها ما يشترك فيها القوى الثلاث ومن هذه القوى ما يكون للانسان وغيره من الحيوان ومنها ما يختص به الانسان فقط * فأما النفس

الشهوانية فهي للانسان ولسائر الحيوان وهي التي بها
تكون جميع اللذات والشهوات الجسمية كالقرم الى
المآكل والمشارب والمباضعة وهذه النفس قوية جدا اذا
لم يقهرها الانسان ويؤدبها ملكته واستولت عليه فاذا
غلبته عسر تهذيبها وصعب قمعها وتذليلها واذا تمكنت
هذه النفس من الانسان وملكته وانقاد لها كان بالبهائم
أشبه منه بالناس لان اغراضه ومطلوباته وهمته تصير
أبدا مصروفة الى الشهوات واللذات فقط وهذه هي عادات
البهائم ومن تكون هذه الصفة صفته يقل حياؤه ويكثر
خرقه ويستوحش من أهل الفضل ويميل أبدا الى الخلوات
وينقبض من المجالس الحفلة ويبغض أهل العلم ويشنأ
أهل الورع والنسك ويود أصحاب الفجور ويستحب
الفواحش ويكثر من ذكرها ويلتذ باستماعها ويسر بمعاشرة
السخفاء ويغلب عليه الهزل وكثرة اللهو * وقد يصير من
هذه حالته الى الفجور وارتكاب الفواحش والتعرض

للمحظورات ودعته محبة اللذات الى اكتساب الاموال من اقبح وجوهها وحملته نفسه على الغضب والتلصص والخيانة وأخذ ماليس له به حق وذلك لان اللذات لاتتم الا بالاموال والاغراض فحب اللذة اذا تعذرت عليه الاموال من وجوهها حملته شهوته على اكتسابها من غير وجوهها ومن تنتهي به شهواته الى هذا الحد فهو أسوء الناس حالا وهو من الاشرار الذين يخاف خبثهم ويستوحش منهم ويستروح الى البعد عنهم وحينئذ يصير واجبا على أولى السياسات تقويمهم وتأديبهم وابعادهم ونفيهم حتى لا يختلطون بالناس فان فى اختلاط من هذه صفته بالناس مضرة لهم وخاصة لاحداثهم فان الحدث سريع الانطباع ونفسه مجبولة على الميل الى الشهوات فاذا ما شاهد غيره مرتكبا لها مستحسنا للانهماك فيها مال هو أيضا الى الاقتداء به والى مساعدته لذته * فاما من ملك نفسه الشهوانية وقهرها كان ضابطا لنفسه عفيفا

فى شهواته محتشما فى أفعاله متوقيا من المحظورات محمود الطريقة فى جميع ما يتعلق باللذات * فاما العلة الموجبة لاختلاف عادات الناس فى شهواتهم ولذاتهم وعفة بعضهم وفجور بعضهم فهى اختلاف أحوال النفس الشهوانية فانها اذا كانت مهذبة مؤدبة كان صاحبها عفيفا ضابطا لنفسه * واذا كانت مهملة مالكة لصاحبها كان صاحبها فاجرا شريرا واذا كانت متوسطة الحال كانت رتبة صاحبها فى العفة كرتبته فى التأدب فمن أجل هذا وجب أن يقهر الانسان نفسه الشهوانية ويهذبها حتى تصير منقادة له ويكون هو مالكها فيستعملها بالتأدب ويكفها عما لا حاجة به اليه من الشهوات الرديئة واللذات الفاحشة فأما النفس الغضبية فيشترك فيها الانسان أيضا وسائر الحيوان وهى التى يكون بها الغضب والحدة والجراءة ومحبة الغلبة * وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية وأضر بصاحبها اذا ملكته وانقاد اليها فان

الانسان اذا انقاد للنفس الغضبية كثر غضبه وظهر حرقه واشتد حقده وعدم حلمه ووقاره وقويت جراءته ويسرع عند الغضب الى الانتقام والايقاع بغضبه والوثوب بخصومة عليه فيسرف في العقوبة ويزداد في التشفي ويكثر من السب ويفحش فيه فاذا استمرت هذه العادات بالانسان كان بالسباع أشبه منه بالناس وربما حملت قوما على حمل السلاح ضد اخواتهم وأوليائهم وعبيدهم وخدمهم عند الغضب من يسير الامور وربما اذا غضب من تكون هذه حالته ولم يقدر على الانتقام بالقتل والجراح فيعود بالضرب والسب والالم على نفسه * فمنهم من يلطم وجهه وينتف لحيته ومنهم من يعض يده ويسب نفسه ويدنس عرضه وهلم جرا * وأيضا فان من تملكه النفس الغضبية كما ذكرنا يكون محبا للغلبة متوثبا على من أذاه مقدما على من ناداه طالبا للترآس من غير وجهه فاذا لم يتمكن من مرغوبه هذا قصد التوصل اليه بالحيل الخبيثة

فاستعمل كلما يمكنه من الشر وهذه الافعال تورط صاحبها وتوقعه فى المهاوى والمهالك فان من وثب على الناس وثبوا عليه ومن خاصمهم خاصموه ومن أقدم عليهم أقدموا عليه ومن تشرر عليهم قصدوه بالشر واذا سفه الانسان على خصمه وكان الخصم أسفه منه قابله ذلك باكثر منه وقد يغلب على من هذه حالته الحسد والحقد واللجاجة والجور وقد تحمل هؤلاء محبة الغلبة وطلب الرياسة على اكتساب الاموال من غير وجهها الحلال وأخذها بالغصب والغلبة والظلم وربما قتلوا على محبة الغلبة من يناوشهم وقد يفعلون ذلك من غير روية ولا تبصر فيؤول الامر بهم الى البوار والاستئصال * فأما من ساس نفسه الغضبية وادبها وقمعها كان حليما وقورا عادلا محمود الطريقة * اما العلة الموجبة لاختلاف عادات الناس فى غضبهم وحرقهم وحلم بعضهم وسفاهة بعضهم فهى اختلاف احوال النفس الغضبية فاذا كانت متذللة مقهورة كان

صاحبها

صاحبها حليما وقورا * واذا كانت مهملة مستولية على
صاحبها كان غضوبا سفيها ظلوما غشوما * واذا كانت
متوسطة الحال كانت رتبته فى الحلم كرتبة نفسه الغضبية
فى التأدب فمن أجل ذلك وجب أن يروض الانسان نفسه
الغضبية حتى تنقاد له فيملكها ويستعملها فى الظروف
التى يجب استعمالها فيها ولهذه النفس أيضا فضائل
محمودة وذلك كالانفة من الامور الدنية ومحبة الرياسة
الحقيقية وطلب المراتب العالية وهذه الاخلاق المحمودة
هى من أفعال النفس الغضبية فاذا ملك الانسان هذه
النفس بالتأديب والتهذيب واستعملها فى الامور الجميله
وكفها عن الاعمال المكروهة كان حسن الحال محمود
الطريقة * وأما النفس الناطقه فهى التى بها يتميز الانسان
من بين سائر الحيوان وبها يكون الفكر والذكر والتمييز
والفهم وهى التى يكون بها أيضا شرف الانسان وعظمت
همته فيعجب بنفسه وبها يستحسن المحاسن ويستقبح

القبائح وبواسطتها يمكن الانسان أن يهذب قوتيه الباقيتين أعنى بهما الشهوانية والغضبية ويضبطهما ويكفهما وبها يتفكر فى عواقب الامور فيبادر باستدراكهما من أوائلها * ولهذه القوة فضائل ورذائل أما فضائلها فاكتساب العلوم والاداب وكف صاحبها عن الرذائل والفواحش وقهر النفسين الاخريتين وتأديبهما وسياسة صاحبها فى معاشه ومكسبه وفى مروءته وتحمله وحث صاحبها على فعل الخير والتودد والرأفة وسلامة النية والحلم والحيا والنسك والعفة وطلب الرياسة من الوجوه المجملة * وأما رذائلها فالخبث والحيلة والخديعة والملق والمكر والحسد والتشرر والرياء وهذه النفس هى لجميع الناس الا ان منهم من تغلب عليه فضائلها فيستحسنها ويستعملها ومنهم من تغلب عليه رذائلها فيالفها فيستمر عليها ومنهم من يجتمع فيه بعض الفضائل وبعض الرذائل وهذه العادات قد تكون فى كثير من الناس

الناس سجية وطبعا لا تكلفا * فأما المطبوع على العادات الجميلة منها فتكون لقوة نفسه الناطقة وشرف عنصره الطبيعي وأما المطبوع على العادات الرديئة المكروهة فلضعف نفسه الناطقة وسوء جوهره * وأما الذي تجتمع فيه فضائل ورذائل فهو الذي تكون نفسه الناطقة متوسطة الحال * وقد يكتسب أكثر الناس هذه العادات وجميع الاخلاق جميلها وقبيحها معا وذلك يكون بحسب منشأ الانسان واخلاق من يحيط به ويعاشره ويقرب منه بحسب رؤساء وقته ومن يشار اليه بالنباهة ويغبط منهم على رتبته فان الحدث والناشئ يكتسب الاخلاق جميلة أو قبيحة ممن يكثر مجالسته ومخالطته ومن أبويه خصوصا وأهله وعشيرته فاذا كان هؤلاء سيئ الاخلاق مذمومي الطريقة كان الحدث والناشئ بينهم سيئ الاخلاق مكروه العادات * واذا رأى الحدث أيضا أهل الرياسة ومن فوقه وغبطهم على مراتبهم آثر التشبه بهم والتخلق

باخلاقهم فان كانوا مهذبي الاخلاق حسني السيرة كان المتشبه بهم حسن الاخلاق مرضي الطريقة * وان كانوا أشرارا جهالا كان الغابط لهم السالك طريقهم شريرا جاهلا وهذه الحالة هي حالة اخلاق أكثر الناس فان الجهل والشر والخبث والشره والحسد غالبا عليهم والناس بالطبع يقتدي بعضهم ببعض ويقتدي التابع أبدا سيرة المتبوع واذا كان الغالب على الناس الشر والجهل اقتدى بذلك أولادهم واحداثهم واتباعهم

أما العلة الموجبة لاختلاف أخلاق الناس في سياستهم وفضائلهم وغلبة الخير والشر عليهم فهي اختلاف قوة النفس الناطقة فيهم فاذا كانت خيرة فاضلة قاهرة للنفسين الباقيتين كان صاحبها خيرا عادلا حسن السيرة واذا كانت شريرة خبيثة مهملة للنفسين الباقيتين كان صاحبها شريرا خبيثا جاهلا فمن أجل ذلك وجب أن يعمل الانسان فكره ويميز أخلاقه ويختار منها ما كان

مستحسنا

مستحسنا جميلا وينفي منها ماكان مستنكرا قبيحا ويحمل نفسه على التشبه بالاخيار ويجتنب كل التجنب عادات الاشرار فانه اذا فعل ذلك صار بالانسانية متحققا وللرياسة الذاتية مستحقا * فاما أنواع الاخلاق واقسامها وما المستحسن منها المستحب اعتياده المعدود فضائل وما المستقبح منها المكروه المعدود نقائص ومعائب فهو الآتي بيانه ايضاحا وتفصيلا

(فصل في الأخلاق الحسنة المعدودة فضائل)

اما التي تعد فضائل فان منها العفة وهي ضبط النفس عن الشهوات وقسرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد ويحفظ صحته فقط واجتناب السرف والتقصير في جميع اللذات وقصد الاعتدال وان يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب المتفق على الارتضاء به وفي أوقات الحاجة التي لاغناء عنها وعلى القدر الذي لا يحتاج الى اكثر منه ولا يحرس النفس والقوة أقل منه وهذه

الحالة هى غاية العفة .

(ومنها أيضا القناعة) وهى الاقتصار على ما سنح من العيش والرضى بما تسهل من المعاش وترك الحرص على اكتساب الاموال وطلب المراتب العالية مع الرغبة فى جميع ذلك وايثاره والميل اليه وقهر النفس على ذلك والقنع باليسير منه وهذا الخلق مستحسن من أواسط الناس وأصاغرهم فاما الملوك والعظماء فليس ذلك مستحسنا منهم ولا تعد القناعة من فضائلهم .

ومنها التصون وهو التحفظ من التبدل فن التصون التحفظ من الهزل القبيح ومخالطة أهله وحضور مجالسه وضبط اللسان عن الفحش وذكر الخنا والمزح والسخف وخاصة فى المحافل ومجالس المحتشمين اذلا أبهة لمن يسرف فى المزح ويفحش فيه * ومن التصون أيضا الانقباض عن أدنياء الناس وأصاغرهم ومصادقتهم ومجالستهم والتحرز من العيشة الزرية واكتساب الاموال من الوجوه الخسيسة

والترفع

والترفع عن طلب الحاجات من لئام الناس وسفلتهم والتواضع لمن لا قدر له والاقلال من البروز أعنى الطواف من غير حاجة والتبذل بالجلوس فى الاسواق وقوارع الطرق من غير اضطرار حيث ان الاكثار من ذلك لا يخلو من العيوب فان اعظم قدرا كما قيل من ظهر اسمه وخفى جسمه

(ومنها الحلم) وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك وهذا الحال محمود ما لم يؤدى الى ثلم جاه أو فساد سياسة وهو بالملوك والرؤساء احسن لانهم اقدر على الانتقام من مغضبيهم * ولا تعد فضيلة حلم الصغير على الكبير وان كان قادرا على مقابلته فى الحال فانه وان مسك عنه فانما يعد ذلك خوفا لا حلما

(ومنها الوقار) وهو الامساك عن فضول الكلام والعبث وكثرة الاشارة والحركة فيما يستغنى عن التحرك فيه وقلة الغضب والاصغاء عند الاستفهام والتوقف عند الجواب

والتحفظ عند النزعة والمبادرة في جميع الامور * ومن قبيل الوقار أيضا الحياء وهو غض الطرف والانقباض من الكلام حشمة للمستحيى منه وهذه العادة محمودة مالم تكن صادرة عن عي أو عجز

(ومنها الود) وهو المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة والود مستحسن من الانسان اذا كان لاهل الفضل والنبل وذوي الوقار والابهة والمتميزين من الناس فاما التودد الى أراذل الناس وأصاغرهم والاحداث والنساء وأهل الخلاعة وما شابههم فمكروه جدا وحسن الود ما نسجته على منوال مناسب للفضائل وهو أوثق الود وأثبته فاما ما كان ابتدأوه اجتماعا على هزل أو طلب لذة أو ما شابه ذلك فليس بمحمود ولا باق ولا ثابت *

(ومنها الرحمة) وهي خلق مركب من الود والجزع والرحمة لا تكون الا لمن تظهر منه لراحمه خلة مكروهة اما نقيصة في نفسه وأما محنة عارضة له فالرحمة هي محبة للمرحوم مع جزع

من

من الحالة التى من أجلها رحم وهذه الحالة مستحسنة مالم تخرج بصاحبها عن العدل ولم تنته به الى الجور والى فساد السياسة * وليست بمحمودة رحمة القاتل عند القود والجانى عند القصاص

(ومنها الوفا) وهو الصبر على مايبذله الانسان من نفسه ويرهن به لسانه وعدم الخروج مما يضمنه ولو كان مفرطا ولا يعد وفيا من لم يلحقه بوفائه أذية ولو قليلة وكلما أضر به الدخول تحت ما حكم به على نفسه كان أبلغ فى الوفاء وهذا الخلق محمود ينتفع به جميع الناس فان من عرف بالوفاء كان مقبول القول عند الناس فى جميع مايعد به ومن كان مقبولا كان عظيم الجاه الاان انتفاع الملوك بهذا الخلق أنفع وحاجتهم اليه أشد لانه متى عرف منهم قلة الوفا لم يوثق بمواعيدهم ولم تتم اغراضهم ولم تسكن اليهم جندهم واعوانهم

(ومنها اداء الامانة) وهو التعفف عما يتصرف الانسان

فيه من مال غيره ومايوثق به عليه من الاعراض والحرم مع القدرة عليه و رد ما يستودع الى مودعه

(ومنها كتمان السر) وهذا الخلق مركب من الوقار واداء الامانة فان اظهار السر من فضول الكلام وليس بوقور من تكلم بالفضول والفضولي ناقص الشرف * فكما ان من استودع مالا فاخرجه الى غير مودعه قد حقر الامانة كذلك من استودع سرا فأخرجه الى غير صاحبه فقد حقر الامانة أيضا * وكتمان السر محمود من جميع الناس وخاصة ممن يصحب السلطان وأولياء الامور فان اخراجه أسرارهم قبيح فى نفسه يؤدى الى ضرر عظيم و بلاء جسيم *

ومنها التواضع وهو ترك الترؤس واظهار الخمول وكراهية التعظيم والزيادة فى الاكرام وان يتجنب الانسان المباهاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالمال والجاه وان يتحرز من الاعجاب والكبر ولا يحمد التواضع الا من أكابر الناس و رؤسائهم وأهل الفضل والعلم وأما ما سوى هؤلاء

فلا

فلا يكونون متواضعين بالتواضع لان الضعة هي محلهم ومرتبتهم ولو كانوا غير متضعين *

(ومنها البشر) وهو اظهار السرور بمن يلقاه الانسان من اخوانه واودائه وأصحابه وأوليائه ومعارفه والتبسم عند اللقاء وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس وهو من الملوك والعظماء أحسن لان البشر من الملوك والولاة تتألف به قلوب الرعية والاعوان والحاشية ويزداد به تحببا اليهم ولا يعد سعيدا من الملوك أو الولاة من كان مبغضا لرعيته لان ذلك ربما ادّى الى فساد أمره وزوال حكمه وملكه

ومنها صدق اللهجة وهو الاخبار عن الشيء على ما هو عليه وهذا الخلق مستحسن ما لم يؤدى الى ضرر مفرط فانه ليس يستحسن صدق الانسان ان سئل عن فاحشة كان ارتكبها فانه لا يفي حسن صدقه بما يلحقه في ذلك من العار والمنقصة الباقية اللازمة وكذلك ليس يحسن صدقه اذا سئل عن مستجير استجاره فاخفاه ولا ان سئل عن جناية

متى صدق عنها عوقب عليها عقوبة مؤلمة * والصدق مستحسن من جميع الناس وهو من الملوك والعظماء أحسن فلا يسعهم الكذب مالم يعد الصدق عليهم بضرر

(ومنها سلامة النية) وهو اعتقاد الخير بجميع الناس وتنكيب الخبث والغيلة والمكر والخديعة وهذا الخلق محمود من جميع الناس الا انه ليس يصلح للملوك التخلق به دائما وقد لا يتم الحكم الا باستعمال المكر والحيل والاغتيال مع الاعداء ولكن لا يحسن بهم استعماله مع أخصائهم واصفيائهم وأهل طاعتهم

(ومنها السخاء) وهو بذل المال من غير مسئلة ولا استحقاق وهذا الخلق مستحسن مالم ينته الى السرف والتبذير فان من بذل جميع ما يملكه لمن لا يستحقه لا يسمى سخيا بل يسمى مبذرا ومضيعا * والسخاء في سائر الناس فضيلة مستحسنة وأما في الملوك والاولياء فامر واجب لان البخل يؤدى الى الضرر العظيم في الاحكام * والسخاء والبذل ترتبط بهما

قلوب

قلوب الرعية والجند والاعوان فيعظم الانتفاع به

(ومنها الشجاعة) وهى الاقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة الى ذلك وثبات الجاش أى القلب عند المخاوف والاستهانة بالموت وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس وهو بالملوك واعوانهم أليق وأحسن بل ليس بمستحق للملك من عدم هذه الخلة واكثر الناس اضطرارا واحوجهم الى اقتحام الغمرات هم الملوك والحكام فالشجاعة اذا من اخلاقهم الخاصة بهم

(ومنها المناقشة) وهى منازعة النفس الى التشبه بالغير فيما يراه ويرغب فيه لنفسه والاجتهاد فى الترقى الى درجة أعلى من درجته وهذا الخلق محمود اذا كانت المناقشة فى الفضائل والمراتب العالية أو فيما يكسب مجدا وسوددا فأما فى غير ذلك من اتباع الشهوات والمباهاة باللذات والزينة وغير ذلك فمكروه جدا

(ومنها الصبر عند الشدائد) وهذا الخلق مركب من

الوقار والشجاعة وهو مستحسن جدا مالم يكن الجزع نافعا
والحزن والقلق مجديا والحيلة والاجتهاد دافعة ضرر
تلك الشدائد فما أحسن الصبر اذا عدمت الحيلة وما اقبح
الجزع اذا لم يكن مفيدا

(ومنها عظم الهمة) وهو استصغار مادون النهاية من
معالي الامور وطلب المراتب السامية واستحقار مايجود به
الانسان عند العطية والاستخفاف بأواسط الامور
وطلب الغايات والتهاون بما يملكه وبذله لمن يسأله
من غير امتنان ولا اعتداد به وهذا الخلق من
خصوصيات الملوك والحكام وقد يحسن بالرؤساء والعظماء
ومن تسمو نفسه الى مراتبهم * ومن عظم الهمة الانفة
والحمية والغيرة فالانفة هي بعد النفس عن الامور
الدنية والحمية والغيرة معا والغضب عند الاحساس
بالنقص وتلحق الانسان الغيرة على الحرم لان في التعرض
لهن عارا ومنقصة فان المتعرض للحرم مهتضم لصاحبهم

ومتصرف فى غير حق له والاهتضام نقيصة ومن أعظم الهمة الانفة منه وهذا الخلق مستحسن جدا من جميع الناس

(ومنها العدل) وهو التقسط اللازم للاستواء واستعمال الامور فى مواضعها واوقاتها ووجوهها ومقاديرها من غير سرف ولا تقصير ولا تقديم ولا تأخير

(فصل فى الاخلاق الرديئة التى تعد نقائص ومعائب)

فأما الاخلاق الرديئة التى تعد نقائص ومعائب فان منها الفجور وهو الانهماك فى الشهوات والاستكثار منها وايثار اللذات والادمان عليها وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها وبالجملة السرف فى جميع الشهوات وهذا الخلق مكروه جدا يهدم الحياء ويذهب بماء الوجه ويخرق حجاب الحشمة

(ومنها الشره) وهو الحرص على اكتساب الاموال وجمعها وطلبها من كل وجه ولو قبح طريق اكتسابها والمناوشة عليها والاستكثار من القنية وادخار الاعراض

وهذا الخلق مكروه من جميع الناس الا من الملوك والحكام فان كثرة الاموال والذخائر والاعراض تعينهم وتزيدهم هيبة فى نفوس رعيتهم واعوانهم واعدائهم واضدادهم

(ومنها التبذل) وهو اطراح الحشمة وترك التحفظ والاكثار من الهزل واللهو ومخالطة السفهاء وحضور مجالس السخف والهزل والفحش والتفوه بالخناء وذكر الاعراض والمزح والجلوس فى الاسواق وعلى قوارع الطرق والتكسب بالمعائش الزرية والتواضع للسفلاء وهذا الخلق قبيح بجميع الناس

(ومنها السفه) وهو ضد الحلم وهو سرعة الغضب والطيش من يسير الامور والمبادرة فى البطش والايقاع بالمؤذى والسرف فى العقوبة واظهار الجزع من أدنى ضرر والسب الفاحش وهذا الخلق مستقبح من كل أحد الا انه بالملوك والرؤساء أقبح منه

(ومنها الخرق) وهو كثرة الكلام والتحرك من غير حاجة

خاجة وشدة الضحك والمبادرة الى الامو ر من غير توقف وسرعة الجواب وهذا الخلق مستقبح من كل أحد وهو باهل العلم وذوى النباهة أقبح ومن قبيله قلة الاحتشام لمن يجب احتشامه والمجاهرة بالاجوبة الغليظة الفظة المستشنعة وهذا الخلق مكروه وخاصة بذوى الوقار

(ومنها العشق) وهو افراط الحب والسرف فيه وهذا الخلق مكروه من جميع الناس واقبحه ما كان مصروفا الى طلب لذة واتباع شهوة وقد يحمل هذا الخلق صاحبه على الفجور وارتكاب الفواحش وكثرة التبذل وقلة الحياء ويكسبه عادات رديئة وهو بالكل قبيح الا انه بالاحداث والمترفهين المتنعمين أقل قبحا اذا كان ميله خالص مما ذكرنا

(ومنها القساوة وهذا الخلق مركب من البغض والشجاعة وهو التهاون بما يلحق الغير من الالم والاذى وهذا الخلق مكروه من كل أحد الا من الجند واصحاب السلاح

والمتولين الحروب فان ذلك غير مكروه منهم اذا كان في موضعه

(ومنها الغدر) وهو الرجوع عما يبذله الانسان من نفسه ويضمن الوفاء به وهذا الخلق مستقبح ان كان لصاحبه فيه مصلحة ومنفعة وهو بالملوك والحكام أقبح وأضر فان من عرف منهم بالغدر لم يركن اليه أحد ولم يثق به انسان فاذا لم يركن اليه فسد نظام ملكه

(ومنها الخيانة) وهي الاستبداد بما يؤتمن الانسان عليه من الاموال والأعراض والحرم وتملك ما يستودع ومجاحدة مودعه ومن الخيانة أيضا طي الاخبار اذا ندب الانسان لتأديتها وتحريف الرسائل اذا حملها وصرفها عن وجهها وهذا الخلق أعني الخيانة مكروه من جميع الناس ويثلم الجاه ويقطع وجوه المعائش

(ومنها افشاء السر) وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة فانه ليس بوقور من لم يضبط لسانه ولم يتسع صدره

صدره لحفظ ما يستسر به والسر أحد الودائع وافشاؤه نقيصة على صاحبه فالمفشي بالسر خائن وهذا الخلق قبيح جدًّا وخاصة بمن يصحب الملوك واولياء الامور ويتداخل معهم * ومن قبيل افشاء السر أيضا الغيبة والنميمة وهي ان يبلغ انسان انسانا عن آخر قولا منكرا وهذا الخلق قبيح جدًّا ولو لم يستمر أيضا بما يسمعه أو يبلغه فنقله الى من يكره قبيح لان في ذلك ايقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ عنه وذلك غاية التشرر.

(ومنها الكبر) وهو استعظام الانسان نفسه واستحسان ما فيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم والترفع على من يجب التواضع له وهذا الخلق مكروه جدًّا ومضر بصاحبه لان من اعجبته نفسه لم يستزد من اكتساب الادب ومن لم يستزد بقي على نقصه اذ ان الانسان لا يخلو من النقص قبل ما ينتهي الى غاية الكمال وأيضا فان هذا الفعل يبغضه عند الناس ومن تبغضه الناس ساءت

أحواله

(ومنها العبوس) وهو التقطب عند اللقاء وقلة التبسم واظهار الكراهية وهذا الخلق مركب من الكبر وغلظ الطبع فان قلة البشاشة هي استهانة بالناس والاستهانة بالناس تكون من الاعجاب والكبر * وقلة التبسم أيضا خاصة عند لقاء الاخوان تكون من غلظ الطبع وهذا الخلق مستقبح وخاصة بالرؤساء والافاضل

(ومنها الكذب) وهو الاخبار عن الشئ بخلاف ماهو عليه وهذا الخلق مكروه مالم يكن لدفع مضرة لايمكن ان تدفع الابه أو اجتناب نفع لاغناء عنه ولا يتوصل اليه الابه فان الكذب عند ذلك ليس بمستقبح وانما يستقبح الكذب اذا كان عبثا اولنفع يسير لاخطر له ولا يفي بقباحته * والكذب قبيح بالملوك والرؤساء اكثر لان اليسير من النقص يشينهم

(ومنها الخبث) هو اضمار الشر للغير واظهار الخير له ريا. واستعمال

واستعمال الحيلة والمكر والخديعة في المعاملات وهذا الخلق مكروه جدا من جميع الناس الا من الملوك الرؤساء فانهم اليه يضطرون واستعمالهم اياه مع اضدادهم واعدائهم غير مستقبح فأما مع اوليائهم واصحابهم فانه غير مستحسن

(ومن قبيل الخبث الحقد) وهو اضمار الشر للجاني اذا لم يتمكن من الانتقام منه فيخفي ذلك الانتقام الى وقت الفرصة وهذا الخلق من اخلاق الأشرار وهو مذموم جدا

(ومنها البخل) وهو منع المستعطى مع القدرة على اعطائه وهذا الخلق مكروه من جميع الناس الا انه من النساء أقل كراهية بل قد يستحب منهن ذلك اما سائر الناس فانه يشينهم وخاصة الملوك والعظماء وذلك لان البخيل يبغض منهم أكثر مما يبغض من غيرهم ويقدح في حكمهم ويبغضهم الى رعيتهم

(ومنها الجبن) وهو توهم المخاوف وتمكينها فى العقل بدون طائل وعدم الاقدام على الامور عند اللزوم والرعب من مواجهة ذوى الامر عند الاقتضاء وهذا الخلق مكروه الا انه بالجنود واصحاب الحروب مضر جدا

(ومنها الحسد) وهو التألم مما يراه الانسان لغيره من الخير ويجده فيه من الفضائل والاجتهاد فى اعدام ذلك لغير ما هو له وهذا الخلق مكروه وقبيح بكل أحد

(ومنها الجزع عند الشدة) وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن وهو مستقبح جدا اذا لم يكن مجديا نفعا واما اظهاره للحيلة عند الوقوع فى الشدة أو لاستغاثة مغيث أو اجتلاب معين للمساعدة فغير مكروه ولا يعد نقيصة

(ومنها صغر الهمة) وهو ضعف النفس عن طلب المراتب العالية وقصور الأمل عن بلوغ الغايات واستكثار اليسير من الفضائل واستعظام القليل من العطايا والاعتداد بذلك والرضى باواسط الامور واصاغرها

وهذا

وهذا الخلق قبيح بكل احد وهو بالملوك والعظماء أقبح بل ليس بمستحق للاعتبار من صغرت همته

(ومنها الجور) وهو الخروج عن العدل في جميع الامور كاخذ الاموال من غير وجهها الحلال والمطالبة بما لا يجب من الحقوق وفعل الاشياء في غير مواضعها ولا أوقاتها ولا على القدر الذي يجب ولا على الوجه الذي يستحب ومن قبيل ذلك السرف والتبذير أيضا

(فصل في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس)
(فضيلة وفي بعضهم رذيلة)

(منها حب الكرامة) وهو ان يسر الانسان بالتعظيم والتبجيل والمقابلة بالمدح والثناء الجميل وهذا الخلق محمود في الاحداث والصبيان لان محبة الكرامة تحثهم على الرغبة في اكتساب الفضائل وذلك ان الحدث والصبي اذا مدحا على فضيلة وجدت فيهما كان ذلك داعيا لهما الى الازدياد في الفضائل وأما الافاضل من الناس فان ذلك

يعد منهم نقيصة لان الانسان انما يمدح على الفضيلة اذا كانت مستغربة منه اما اذا كان من أهل الفضل فلا ينبغي ان يسر أو أن يستغرب ما يظهر منه من الفضائل وكذلك الاكرام والتبجيل اذا كان زائدا على استحقاقه فانه يجري مجرى الملق والسرور بالملق غير محمود لانه من جنس الخديعة

(ومنها حب الزينة) وهو التصنع بلبس الثياب الفاخرة وركوب الخيل وكثرة الخدم والحشم وهذا مستحسن من الملوك والعظماء والاحداث والظرفاء والنساء * فأما الرهبان والزهاد والشيوخ وأهل العلم وخاصة الخطباء والواعظون ورؤساء الدين فان التصنع والزينة مستقبح منهم والمستحسن منهم هو لبس الخشن وكراهية التنعم ولزوم بيوت الصلاة

(ومنها المجازاة على المدح) وهو مجازاة من يمدح الانسان ويشكره في المجالس والمحافل وهذا الخلق مستحسن من الملوك

الملوك والرؤساء لانه يدعو المادح الى الازدياد فى مدحه فيكتسب الممدوح ذكرا جميلا يبقى الى الدهر ومن فضائل الملوك والرؤساء بقاء ذكرهم الجميل وأما محبتهم سماع المدح من المادح مواجهة فذلك غير مستحب منهم لانه من جنس الملق وحب الملق مكروه لكونه من قبل الخديعة كما تقدم فاما ايثارهم فهو انتشار ذكرهم ومدحهم وتناول الناس له وبقاؤه بعدهم ومجازاة المادح مستحسنة من الملوك ومنعهم مستقبح وعار عليهم لان ذلك يدعو الى ذمهم وذمهم يبقى أيضا الى الدهر فينشئ لهم ذكرا قبيحا وذلك مكروه من الملوك والرؤساء اما أصاغر الناس فمحبتهم جزاء المادح لهم غير مستحسن لان المادح اذا مدح الدنيء من الناس فانما يخدعه فاذا أجازه اعتقد انه أخذ منه تلك الجائزة بالحيلة * وكثير من الناس اذا مدحوا بما ليس فيهم يبادرون الى مجازاة المادح فيكونون قد وضعوا الشئ فى غير موضعه

فلو صرفوا ذلك الشئ الى الضعفاء وأهل المسكنة كان ذلك أجمل بهم واليق

(ومنها الزهد) وهو قلة الرغبة في الاموال والادخار وغيرها وايثار القناعة بما يقيم الرمق والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها وقلة الاكتراث بالمراتب العالية واستصغار الملوك وممالكهم وأرباب الاموال واموالهم وهذا الخلق مستحسن جدّا من العلماء و رؤساء الدين والخطباء والواعظين ومن يرغب الناس في المعاد والبقاء بعد الموت فأما الملوك والعظماء فان ذلك غير مستحسن منهم ولا لائق بهم لان الملك اذا اظهر الزهد صار ناقصا اذ ان ملكه لا يتم الا باحتشاد الاموال والاغراض وادخارها ليدبر بها ملكه ويصون بواسطتها حوزته ويتفقد بها رعيته وهذا مضاد للزهد فانه اذا ترك الادخار أبطل ملكه وصار معدودا في جملة الملوك الحائدين عن طريق السياسة فهذه الاقسام التى

التي ذكرناها هي اخلاق جميع الناس .
أما الممدوحة منها المعدودة فضائل فقلما تجتمع كلها في انسان واحد وأما المذمومة منها المعدودة نقائص ومعائب فقلما يوجد انسان يخلو من جميعها حتى لا يكون فيه خلق مكروه وخاصة من لم يروض نفسه ويؤدبها فان من لا يتعمل لضبط نفسه ويتفقد عيوبه لم يخل من عيوب كثيرة وان لم يحس بها ولم يفطن اليها واذا كان الحال على ماذكرناه كان أولى الامور بالانسان ان يتفقد أخلاقه ويتأمل عيوبه ويجتهد في اصلاحها ونفيها عن نفسه ويتبع الاخلاق المحمودة ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها لان الناس انما يتفاضلون على الحقيقة بفضائلهم لا كما يعتقد الجهال والعامة انهم يتفاضلون باحوالهم واموالهم وكثرة ذخائرهم * وافتخار أكثر الناس بالاموال والذخائر والالات وتعظيمهم الاغنياء وذوي الجاه ليس في محله وذلك لان كثرة المال انما تتفاضل بها

احوال الناس وأما نفوسهم فلا تكون أفضل من نفوس غيرهم بكثرة المال وذلك لان الفاجر السفيه الجاهل الشرير وان حوى اموالا عظيمة فلا يكون بافضل من العفيف الحكيم الخير العالم ولو كان فقيرا بل انما يكون بكثرة أمواله اغنى منه اذا كان ذلك معسرا فقيرا وأما التفضيل الحقيقي فلا يكون الا بكثرة الفضائل فقط ولكن ان اجتمع بالانسان مع الاخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغنى والثروة أيضا فلعمري انه يكون احسن حالا من الفاضل المعسر لان هذا من سعادات الانسان وخاصة اذا كان فاضلا عادلا عفيفا يصرف ماله في وجهه وينفقه في حقه ويتفقد به من يجب تفقده ويسعف به أهل المسكنة ولا يتقاعد عن حق يجب عليه ولا يتهامل في مكرمة تزيد في محاسنه * أما الناقص الجاهل السيء العادات فان الغنى ربما زاده نقصا وعيوبا واضاف الى مثالبه عيوبا أخرى * ولا يعد بخيلا من لا مال له وان

كان

كان البخل من طبعه لان فقره يخفي ذلك منه ومتى لم يظهر
منه هذا الامر فلا يعاب عليه لان الانسان انما يعاب بما
يظهر منه واما من كان ذا مال و يسار ولم يجد به ظهر
بخله فيصير المال جالبا عليه عارا وأيضا فان اكثر الفجور
والمحظورات والشهوات الرديئة لاتنال غالبا الا بالاموال
فالفقير المعسر وان كان فجورا فلا يكاد يظهر ذلك منه اما
اذا كان ذا مال تمكن من شهواته فتظهر حينئذ عيوبه وبناء
عليه يكون الغني مكتسبا لصاحبه احيانا عيوبا ونقائص
والفقر فضائل ومحاسن فينتج من ذلك اذا ان الناس
لا تتفاضل حقيقة بالاموال والذخائر بل انما يتفاضلون
بالاداب والمحاسن الذاتية فالخليق بالانسان أن يسوس
نفسه بالاداب المستحسنة و يسلك بها الطريق المحمودة فانه
بذلك يكون محبوبا عند الناس مقبولا لديهم متعظما
في نفوسهم مفضلا عن غيره موقرا عند الرؤساء والملوك
مقبول القول عظيم الجاه فهذه هي حالة العظمة

الحقيقة المكتسبة بالاموال لان المال قد تلحقه المصائب
فاذا فارق صاحبه سقطت منزلته من نفوس الناس
وساوى العامة والسوقة وذلك لان المعظم له كان
ماله لا نفسه فمتى زال ذلك المال لم يبق له شئ يعظم
من أجله وليس كذلك العالم النفيس الفاضل
المهذب الاخلاق لان عظمته بفضائله وهى غير مفارقة
له فهو معتبر دائما ومعظم من أجل ذاته لا لشئ خارج عنه
وبما أن الراغب في سياسة نفسه المؤثر تهذيب اخلاقه
اذا نبه على خلق مذموم وجد فيه واحب اجتنابه ربما
صعب عليه الانتقال عنه من اول وهلة وربما لم ينل
التخلص منه ولم يطاوعه طبعه أو ربما استحسن أيضا خلقا
محمودا لا يجده لنفسه وآثر التخلق به لم تسمح له عادته ولم يصل
الى مراده لذلك وجب ان يرسم للراغبين في السياسة
المحمودة طرقا يتدربون بها ويتدرجون فيها حتى ينتهوا الى
مرادهم من اعتياد الاخلاق الجميلة والانطباع عليها
وتجنب

وتجنب الاخلاق القبيحة والتفرغ منها ولهذا نذكر طريق الارتياض بالاخلاق المحمودة والتمهل لاعتيادها لكي يمكن للراغب المؤدب ان يتخلق بها فنقول

قد ذكرنا فيما تقدم ان سبب اختلاف الاخلاق في الناس هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم وهي الشهوانية والغضبية والناطقة وان اصلاح الاخلاق هو تذليل الشهوانية منها والغضبية وتمييز عادات النفس الناطقة واستعمال المحمود من افعالها * فطريق التدرج لاستعمال العادات الجميلة والعدول عن العادات القبيحة هو التدرج في تذليل هاتين القوتين * أما النفس الشهوانية فالطريق الى قمعها ان يتذكر الانسان في اوقات شهواته وعند شدة العزم الى لذاته انه يريد تذليل نفسه الشهوانية فيعدل عما تاقت نفسه اليه من الشهوة الرديئة الى ما هو مستحسن من جنس تلك الشهوة ومتفق على ارتضائه ويقتصر عليه فان لم تنكسر شهواته يملها

وبعدها فان سكنت انتصر والا عاود الفعل من الوجه المستحسن فانه اذا فعل ذلك وكرره كفت النفس واذا استمر على هذا الحال الفت هذه العادة وتأنست بها واستوحشت مما سواها * وينبغي لمن اراد قمع نفسه الشهوانية ان يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان والنساك واهل الورع والواعظين ويلازم على مجالس الرؤساء وأهل العلم فان هؤلاء وخاصة رؤساء الدين يعظمون من كان معروفا بالعفة ويستزرون من كان فاجرا متهمكا فمجالسته وملازمته لهذه المجالس تضطره الى التصون والتعفف والتجمل لذوقهم لئلا يستزروه ويغضبوا منه ويلحق برتبته من يعظم في المحافل والمجالس * وينبغي له أيضا ان يديم النظر في كتب الاخلاق والسياسة واخبار الزهاد والرهبان والنساك وأهل الورع ويتجنب مجالس الخلعاء والسفها والمنهمكين ومن يكثر المزل واللعب وحينئذ يلحق برتبته ويعظم في المحافل * واكثر ما يجب له ان

ان يتجنب السكر فانه مما يثير نفسه الشهوانية ويقويها ويحملها على التهتك وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها وذلك ان الانسان انما يرتدع عن القبائح بالعقل والتمييز فاذا سكر عدم ذلك الذى كان يردعه عن الفعل القبيح وحينئذ لا يبالى بارتكاب كل ما كان يتجنبه فى حال صحوه فاولى الاشياء بمن يطلب العفة هجر الشراب بالكلية وان لم يمكنه ذلك فليقتصر على اليسير منه ويكون فى الخلوات أو مع من يحتشمه ويتجنب مجالس المجاهرين بالشراب والسكر والخلاعة ولا يظن انه اذا حضر تلك المجالس واقتصر على اليسير من الشراب لم يضره ذلك لان هذا غلط مبين وذلك ان من يحضر مجالس الشراب لا تنقاد له نفسه الى القناعة باليسير منه بل ان حضرها وكان فى غاية العفة تاركا الشرب متمسكا بالورع حملته شهوته على التشبه بأهل المجلس وتاقت نفسه الى التهتك وما اكثر من فعل ذلك التهتك بعد الستر والصيانة فشر الاحوال

بمن يطلب العفة حضورهكذا مجالس ومخالطة أهلها والاستكثار من معاشرتهم و ينبغي لمن اراد قمع نفسه الشهوانية ان يقل من استماع الغناء وخاصة من النساء المتصنعات والشبان الظرفاء فان للسماع قوة عظيمة في اثارة الشهوة فكيف اذا انضاف الى ذلك أن تكون المغنية مشتهاة ومستعملة الوسائط لاستمالة العيون اليها فتجتمع على السامع حينئذ حوادث كثيرة ربما لم يستطع دفع جميعها عن نفسه فالاولى اذا بمن هم بقهر الشهوة ان يتجنب السماع وان لم يكن له منه بد ولم تسمح له نفسه الى هجره بالكلية فليقتصر على استماعه من الرجال أو ممن لا مطمع للشهوة فيه والا قلال منه خير وانصف للمتعفف وأما الطعام فينبغي ان تعلم ان غايته هو الشبع لدفع ألم الجوع وفاخر الطعام ودنيئه جميعهما مشبعان فليس للمبالغة في تجويد الطعام الكثير حظ ولا فائدة والاولى هو التوسط في انواع المأكل وان يكون

من

من الجنس الذى نشأ عليه الانسان واعتاده والفه الا ان شهوة الطعام والنهم فيه وان كانت من الاخلاق الرديئة فهى خفيفة لا تكسب صاحبها من العار ما تكسبه محبة الشراب والمباضعة ومعاشرة النساء أهل الخلاعة ومصاحبة الاحداث المتهتكين للفواحش فان ذلك فى غاية القبح فشهوة المأكل أقل قبحا منه واخف على فاعلها وهو مع ذلك قبيح والاستهتار به وكثرة النهم فيه مكروه فطريق التدرج الى الاقتصار فى الطعام هو ان يبادر ذو الشهوة الى أى شئ وجده من المأكل فان كان المشتهى الذى تاقت نفسه اليه حلوا فالى أى حلاوة وجدها وان كان غير ذلك فالى ما يشتهيه من الطعام فانه اذا تناول الانسان من ذلك تكرارا وشبع منه سكنت شهوته وكفت نفسه بعد ذلك

وينبغى لمن أحب العفة أن يكون أبدا متيقظا ذاكرا لما يلحق الفاجر والنهم والشره والمتهتك من القباحة والعار

في الدنيا جاء لا ذلك ديدنه وشعاره ومداوما على ذكره فان نفسه حينئذ تبغض الشهوات الردية وتشتاق الى التعفف والقناعة وتطرب عند العدول عن الفواحش مع القدرة عليها وترتاح لما ينتشر عنها وما يبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها فهذا هو طريق رياضة النفس الى قهر القوة الشهوانية وتذليلها وقمعها أعني طريق الارتياض بالعادات المحمودة المرضية فيما يتعلق بالشهوات واللذات الدنية

فاما النفس الغضبية فان طريق قمعها وتذليلها هو أن يصرف الانسان همته الى تفقد السفهاء الذين يسرع اليهم الغضب في أوقات طيشهم وحدتهم ويلاحظ تسفههم على أخصامهم وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم فانه يشاهد اذ ذاك منظرا شنيعا يأنف منه الخاص والعام وان يتذكر في اوقات غضبه وعند جنايات خدمه وعبيده ووثوب اخوانه واودائه في جميع محاوراته ومعاملاته

ومعاملاته ماشاهده من أولئك فانه اذا تفكر فيما كان باستخفه منهم فتنكسر بذلك ثورة غضبه ويحجم عما هم بالاقدام عليه من السب والوثوب فان لم يكف بالكلية قصر ولم ينته الى غاية الفحش

وينبغي لمن اراد ان يقهر نفسه الغضبية أن يتذكر في أوقات غضبه على من يؤذيه أو يجني عليه انه لو كان هو الجاني الذي كان يستحق أن يقابل على جنايته فانه بهذا الفعل يعتقد أن دركة تلك الجناية وذلك الاذى يسيرا جدا فاذا اعتقد ذلك كانت مقابلته للجاني المؤذي بحسب اعتقاده خفيفة وحينئذ لا يسرف في الانتقام ولا يفحش في الغضب فمتى فعل ذلك دائما وجعله ديدنا وتفقد معايب السفهاء ومن يسرع اليه الغضب لم يبعد أن تنكسر نفسه الغضبية وتنقاد اليه واذا استمر على هذا العمل مدة صار له خلقا وعادة

وينبغي لمن رغب في تذليل نفسه الغضبية أن يتجنب

حمل السلاح فى مجالس الشراب وحضور مواضع الحروب ومقامات الفتن ومجالسة الاشرار وان يتجنب أيضا معاشرة ومخالطة الشرط فان هذه المواضع تكسب القلب قساوة وغلظا وتعدمه الرأفة والرحمة فتقسو لذلك نفسه الغضبية فاذا كان يريد تذليلها وتسكينها يجب عليه ان يجعل مجالسته لاهل الوقار والشيوخ والرؤساء والافاضل ومن يقل غضبه ويكثر حلمه ووقاره.

و ينبغى له أيضا أن يتجنب المسكر من الشراب فانه يهيج النفس الغضبية أكثر مما يهيج النفس الشهوانية لان السكران ربما أسرع الى العربدة والوثوب على جلسائه والاستخفاف بهم وسبهم وذكر أعراضهم بالقبيح بعد ان كان يتحنن عليهم و يتودد اليهم ولا يكون بين الوقتين الا مقدار ما يستحكم به السكر فالسكر والحالة هذه مثير القوة الغضبية ومقويها فمن اراد أن يقهر نفسه الغضبية فلا بد له من أن يتجنب السكر وان تمكن من هجر الشراب كلية

فهو

فهو أصلح لقهر النفس الغضبية والشهوانية جميعا

وينبغي لمن أراد تذليل قوتيه الغضبية والشهوانية معا أن يستعمل في جميع ما يفعله الفكر ولا يقدم على شئ الا بعد أن يمعن النظر فيه ويجعل الفكرة واتباع الرأى ديدنه وعادته فان الرأى وجودة الفكر يقبحان له السفه وسرعة الغضب والانهماك على الشهوات واتباع اللذات فاذا استقبح ذلك أحجم عنه وعدل الى ما يقتضيه الرأى والفكر وان لم يرتدع بالكلية فلابدّ أن يؤثر ذلك فيه فيقتصر عما يريد الاسراع اليه * وملاك الامر في تهذيب الاخلاق وضبط النفس الشهوانية والنفس الغضبية هو النفس الناطقة فان بهذه النفس تكون جميع السياسات فاذا كانت قوية متمكنة من صاحبها امكنه أن يسوس بها قوتيه الباقيتين ويكف نفسه عن جميع القبائح ويتبع ابدا محاسن الاخلاق واذا لم تكن تلك النفس قوية في صاحبها كانت مغمورة خافية

فاول ما ينبغي أن يعتمده العاقل في سياسة أخلاقه هو
أن يروض تلك القوة ويقويها وهذا انما يكون بالعلوم
العقلية فانه اذا نظر في تلك العلوم ودقق النظر فيها
ودرس كتب الاخلاق والسياسة وداوم عليها تيقظت
نفسه وتنبهت من شهواتها وانتعشت من خمولها
وأحست بفضائلها وانفت من رذائلها وذلك لان تلك
النفس انما تضعف وتنحف اذا عدمت الفضائل والمناقب
واستولت عليها الرذائل والخسائس اما اذا اقتنت
الفضائل واكتسبت الاداب تيقظت من غشيتها وثارت
من سكرتها وقويت بعد ضعفها * أما فضائل تلك فهي
العلوم العقلية وخاصة مادق منها فاذا ارتاض الانسان
بها استنارت نفسه وعظمت همته وقوي فكره وتمكن
من نفسه وملك أخلاقه وقدر على اصلاحها وانقاد له
طبعه وسهل عليه تهذيبه واذعنت له القوة الغضبية
والشهوانية وهان عليه تهذيبهما وقمعهما.

فاول

فاول ما ينبغي أن يبتدئ به من يحب سياسة أخلاقه هو
النظر في كتب الاخلاق والسياسات ثم الارتياض بعلوم
الحقائق فان أشرف ما يكون هو ادراك النفس حقائق
الامور واشرافها على هيأت الموجودات فتى شرفت
نفس الانسان وعلت همته رقى الى مراتب الفضل
ومما يصلح النفس الناطقة ويقويها أيضا مجالسة أهل
العلم ومخالطتهم والاقتداء باخلاقهم وعاداتهم وخاصة
أصحاب علوم الحقائق والمتيقظون منهم المستعملون
في جميع امورهم ما تقتضيه علومهم وتوجبه عقولهم
انما تميز عادات النفس الناطقة واستعمال ما حسن
فيها واطراح ما قبح منها فذلك انما يمكن ويتسهل اذا
راض الانسان نفسه الناطقة فان النفس الناطقة اذا
ارتاضت بالعلوم الحقيقية وتيقظت وتشرفت أنفت
من العادات المستقبحة وتنزهت عن التدنيس بها
فيهون حينئذ على صاحبها أن يتجنب ما يستكره من

عاداتها ويغلب عليه استحسان الاخلاق الجميلة والتخلق بها * فقد تبين اذا من جميع ما ذكرناه ان طريق الارتياض بالاخلاق المحمودة والتصنع لاعتيادها واتباع المحمود المرضى منها واجتناب المذموم المستقبح وتذليل قوة الشهوة الغضبية وضبطها وقهرها هو اصلاح القوة الناطقة وتقويتها وتحليتها بالفضائل والاداب والمحاسن فان ذلك هو آلة السياسة ومركب الرياضة * ومن لم يتمكن من اكتساب العلوم العقلية والامعان فيها وتعذر عليه ذلك فليبذل جهده فى تدقيق الفكرة ومجاهدة النفس وتصور الفرق ما بين عادته القبيحة والجميلة وينظر أيهما اجدى عليه وأنفع له وأيهما أحمد عاقبة وابقى على الايام فانه اذا صدق ما تأ كدته نفسه وجد أن شهواته ولذاته انما هى مدة وقت أستعمالها فقط اما بعد مفارقتها فليست بباقية عليه ولا نافعة له ويجد عارها وشينها باقيا الى الدهر ممتدا ولا فيما بين الناس يعاب به ويذرى عليه

وكذلك

وكذلك فى شدّة الغضب والاسراع الى الانتقام والسب والفحش حتى انحلت غمرته وسكنت ثورته تأمل أمره فرأى ان مافعله كان قبيحا ولم يجده مجديا ولامفيدا وقد صار مافعله وقت الغضب نقيصة يوسم بها ومعيرة يسب عليها وربما ارتكب حال الغضب جنايات كثيرة يعاقب عليها ويؤدب من اجلها * كذلك العادات المكروهة فى النفس الناطقة هى أيضا غيرنافعة ولامجدية للانسان نفعا كالحسد مثلا والحقد والخبث وامثال هذه اذلا ينتفع بها صاحبها وان انتفع كان شرمنفعة ومع ذلك فهى مضرة له لان من تشر رقصده الناس بالشر واستعدوا لاذيته وتعمدوا للاضرار به وتوقوه واحترزوا منه وكرهوا نفعه وقصروا عليه وجوه الخير واجتهدوا فى ذلك وماأسوأ حال من كانت هذه صفته فمستعمل الشر والخبث سيئ الحال ضره من شره اكثر من نفعه فاذا حاسب الانسان نفسه واجاد فكرته وتمييزه علم ان الضرر فى مساوى

الاخلاق اكثر من النفع بها وان الذى يعده فيها نفعا فليس هو ينفع على الحقيقة واذا كان نفعا فهو يسير جدّا وغير باق ولا مستمر وان هذا اليسير الذى يعده نفعا لا يفى بالضرر الكثير والعار الدائم المتصل * واعلم أيضا ان الحسد والخبث يجلبان عليه الشر ويوحشان منه الناس فاذا دام واكثر الذكر فى هذه الامور قوى فى نفسه اتباع محاسن الاخلاق وسهل عليه اطراح مساويها ومقابحها وغلب عليه الخير والسداد وفزع من العيب والعار واذا فعل ذلك دائما لم يلبث أن تصلح أخلاقه وتحسن طريقته وتهذب شمائله ويلحق برتبة أهل الفضل ويتميز عن أهل الدناءة والنقص

وينبغى لمن اراد سياسة أخلاقه أن يجعل غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ولا يقتنع منها بما دون الغاية ولا يرضى الا باعلى درجة فانه اذا جعل ذلك غرضه كان حريا أن يتوسط فى الفضائل ويبلغ فيها رتبة مرضية ان فاتته الدرجة

الدرجة العليا وأما ان قنع بالتوسط لم يأمن أن يقصر
عن بلوغه فيبقى فى ادنى المراتب ويفوته المطلوب ولا
يطمع ابدا فى التمام

فهذا الذى ذكرناه هو طريق الارتياض بمكارم الاخلاق
ومنهج التدرج فى محمودها وكيفية تهذيبها فاذا اخذ
الانسان بتدريب نفسه به واكثر من مراعاته وتعهده
صارت له الفضائل دينا والمحاسن خلقا وطبعا

هذا وقد بقى علينا أن نذكر أوصاف الانسان التام الجامع
لمحاسن الاخلاق وطريقته التى يصل بها الى التمام فنقول
ان الانسان التام هو الذى لم تفوته فضيلة من الفضائل
ولم تشنه رذيلة من الرذائل وهذا الحد قلما ينتهى اليه
انسان واذا انتهى اليه افتراضا كان بالملائكة اشبه
منه بالناس وذلك لان الانسان مضروب بانواع النقص
مستول على طبعه ضروب الشر وبناء على ذلك فقلما يخلص
من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة ويحيط

به كل فضيلة ومنقبة حسنة فالتمام وان كان عزيزا بعيد التناول الا انه ممكن وهو غاية ماينتهي اليه الانسان فاذا صدقت عزيمته واعطى الاجتهاد حقه كان ممكناله ان ينتهي الى الغاية المقصودة المتهيئ هولها تلك التي تسمو نفسه اليها .

أما تفصيل أوصاف الانسان التام المهذب الأخلاق الجامع للمحاسن الظريفة فهو أن يكون متفقدا لجميع أخلاقه متيقظا لسائر معائبه متحرزا من دخول نقص عليه مستعملا لكل فضيلة مجتهدا في بلوغ الغاية عاشقا لصورة الكمال مستلذا بمحاسن الاخلاق متيقظا المذموم العادات معتنيا بتهذيب نفسه غير مستكثر لما يقتنيه من الفضائل مستعظما اليسير من الرذائل مستصغرا للرتبة العليا مستحقرا للغاية القصوى يرى التمام دون محله والكمال أقل أوصافه

اما الطريقة التي توصله الى التمام وتحفظ عليه الكمال

فهي

فهي أن يصرف عنايته الى النظر في العلوم الحقيقية
ويجعل غرضه الاحاطة بماهيات الامور الموجودة وكشف
عللها واسبابها وتفقد غاياتها ونهاياتها ولا يقف عند
غاية من عمله الا ويرمق بطرفه الى ما فوق تلك الغاية
ويجعل شعاره ليله ونهاره قراءة كتب الاخلاق وتصفح
كتب السير والسياسات واخذ نفسه باستعمال ما أمر أهل
الفضل باستعماله واشار المتقدمون من الحكماء باعتياده
ويشدو أيضا طرفا من ادب اللسان والبلاغة ويتحلى
بشيء من الفصاحة والخطابة ويغشى ابدا مجالس أهل العلم
والحكمة ويعاشر دائما أهل الوقار والعفة هذا ان كان
من عوام الناس واما اذا كان ملكا أو رئيسا فينبغي له
ان يجعل كلا من جلسائه ومنادميه واعوانه والمحدقين
به من أهل العلم والادب موصوفا بالحكمة والوقار موسوما
بالفهم والفطنة ويقرب مجالس أهل العلم ويبسطهم
ويكثر من مجالستهم والانس بهم ويجعل انبساطه

وتقلده بهذا كرتهم في العلم وفنونه اوسياسة الملك ورسومه واخبار الحكما واخلاقهم وسير الملوك الاخيار وعاداتهم وينبغي للانسان التام ولمن يطلب التمام أيضا أن يجعل لشهواته ولذاته قانونا راتبا يقصد به الاعتدال فقط ويتجنب السرف والافراط ويعتمد من الشهوات واللذات على ماكان من الوجوه المرضية المستحسنة ويعود نفسه بذلك ويحصر عليها الطمع في لذة مكروهة أو شهوة مسرفة ويهجر أصحاب اللذات ومعاشرتهم ويبتعد عن الخلعاء ومخالطتهم ويعتبر في نفسه ان الشهوة عدو مكاشح وخصم مكافح يريد ابدا اضراره واذيته وشينه وفضيحته فيناصب شهوته مناصبة العدو ويكاشفها بالمعاندة ويقمع ابدا سلطتها ويكسر دائما حدتها ويقهر على الدوام سطوتها ويذلل على التدريج عزها ويسكن على الترتيب حدتها فانه اذا فعل ذلك كان دائما بان يملك نفسه وتنقاد له شهوته وينطبع على العفة ويألف حسن السيرة

السيرة * واما اذا ارخى لشهواته عنانها وسمح لها في مرادها
واهمل سياستها ومراعاتها استطالت عليه وشمخت ولم
تلبث ان توهن صاحبها وتقوده وتحمله على ما يسوءه ويغره
فيصير بذلك بعيدا من التمام غير طامع في الكمال
وينبغي أيضا لمن يطلب التمام أن يعلم انه لا سبيل له الى
بلوغ غرضه ما دامت اللذة عنده مستحسنة والشهوة لديه
مستحبة وهذه الحالة صعبة جدا تعسر على طالبها الامور
وتجعلها بعيدة المأخذ جدا وهي على الملوك والرؤساء
أصعب وابعد وذلك لان الملوك والرؤساء أقدر من
غيرهم على اللذات واشد تمكنا من الشهوات وعلى الدوام
هي معرضة لديهم وقد صارت لهم بالاعتياد عليها سجية
وطبعا ففارقتها والحالة هذه تتعذر عليهم واعراضهم
عنها ممتنع خاصة لمن قد نشأ فيها وانهمك عليها الا ان
الملوك وان كانوا أقدر على اللذات وأكثر اعتيادا لها
بكامل الا انهم أعظم هممنا واعز نفوسا فاذا سمت نفس

الملك الى التمام الانسانى راشتاقت الى الرياسة الحقيقية علم ان الملك أحق بان يكون اتم أهل زمانه وافضل من اعوانه ورعيته فيهون عليه حينئذ مفارقة الشهوات الردية وهجر اللذات الدنية

وينبغي أيضا لمن رغب فى سياسة اخلاقه واحب أن يسلك طريق الاعتدال فى شهواته أن يجعل له قانونا يقتصر عليه فى المأكل والمشرب خصوصا مؤسسا على الجود والكرم غير متبذ بنفسه حين الاكل بل مشاركا غيره فى ماله هذا ان كان من الرعية والعوام واما اذا كان ملكا أو رئيسا فينبغي له أن يجلس على مائدته حين الاكل أصحابه واعوانه ويتفقد بفضلاته أهل الفقر والمسكنة وخاصة من سبقت له معرفة أو تقدمت له حرمة ويصرف همته فى مباسطتهم وموانستهم مظهرا الفرح والسرور بهم وليتحرز كل التحرز من أن يبدو منه امتنان بالطعام والشراب او اعجاب وتفاخر فان ذلك يزرى به ويبغض منه ويوحش

من يغشاه ويقطعهم عنه * وقد يستحسن من الانسان أيضا
اذا كان مقلا أن يواسي بطعامه وشرابه اخوانه واصحابه
بحسب امكانيته وماتصل اليه يده ويستحب منه
خصوصا أن يواسي به الفقراء والضعفاء

وينبغي لمن طلب السياسة التامة أن يستهين بالمال ويحتقره
وينظر اليه بالعين التي يستحقها وذلك لان المال أنما يراد
لغيره لالذاته فانه في نفسه غير نافع بالكلية وانما الانتفاع
بالاغراض التي تنال به فالمال والحالة هذه آلة تنال بها
الاغراض فلايجب ان يعتقد ان اقتناءه وادخاره مفيد في
ذاته وذلك لانه اذا ذخر وحرص عليه لم ينل صاحبه شيئا من
الاغراض التي هو بالحقيقة محتاجا اليها فالمال اذا يطلب
لغيره لالذاته كما تقدم * وينبغي للسديد الرأي العالي الهمة
ان يزنه بوزنه فيكسبه من وجهه ويفرقه في وجهه
ويكون مع ذلك غير متوان في اكتسابه ولا متكاسل في
طلبه لان عدم المال يضطره الى التواضع لمن هو دونه

اذا وجد عنده حاجته ووجود المال يغنيه عمن هو فوقه ولو دنت منزلته ويكون أيضا غير متمسك به بل يصرفه في حاجاته وينفقه في مهماته ويقصد الاعتدال في تفريقه ويحذر من السرف والتبذير في خروجه ولا يمنع حقا يجب عليه ولا يصرفه في شئ لا يجب ولا يشكر عليه واذا فرغ من حاجاته واستكفى من نفقاته وسد جميع خلله عاد الى النظر في أمره فان بقي من ماله بقية فاضلة عن مهم اغراضه أخرج منها قسطا للضعفاء والمساكين وأهل الفاقة المستورين ويجعل اهتمامه بافضاله وبره اكثر من اهتمامه بضر ورياته هذا ان كان من أواسط الناس * وأما الملوك والرؤساء فانهم أحق بهذه السياسة بل وفضلاء عن ذلك يجب أن يكونوا أشد عناية من غيرهم فيجتنبوا اموالا من حقها ووجهها ويصرفوا منها في نفقاتهم ومؤناتهم وارزاق جندهم واصحابهم قدر الكفاية من غير سرف ولا تقتير ويذخروا منها شطرا لخوف عاقبة ويصرفوا الباقي

الباقى فى طرق الكرم والجود ووجوه الخير والبر فيعطوا أهل العلم على طبقاتهم ويجعلوا لهم دوائق من خواص اموالهم ويدفعوا شيئا لمن كان مثابرا على العلم والادب ويبروا الضعفاء والمساكين ويفتقدوا الغرباء ويهتموا باولى الزهد والنسك ويخصوهم بقسط من أفضالهم وانعامهم ويعنوا بالصغير والكبير من رعيتهم وينفقوا فى مصالحهم شطرا من أموالهم فان الملوك أولى بالكرم من الرعية واحق بالجود من العامة * وقد يستحسن أيضا من المقلين والمقترين المواساة بالمال والايثار به وان كانوا محتاجين اليه وكلما كانت حاجتهم اليه أشد كان ذلك الفعل حسنا منهم وهذه الحالة تستحسن خصوصا اذا رأى الانسان اخا من اخوانه أو صديقا من أصدقائه قد دعته الحاجة الى مالا يقدر عليه لاصلاح شئ من شأنه أو لدفع محنة نزلت به وكان هو قادرا على ذلك القدر من المال فيبتدى حينئذ باسعافه من غير مسألة

فان فعل هذا الفعل مع الغريب الذى لا يعرفه ولم تسبق له محبة ولا مودة كان جميلا مستحسنا

وينبغى لمن يحب الكمال ان يشعر نفسه ان الغضبان هو بمنزلة البهائم والسباع يفعل ما يفعله من غير علم ولا روية فاذا جرى بينه وبين غيره محاورة أدّت الى أن يغضب خصمه و يسفهه عليه اعتقد فيه اذ ذاك انه فى تلك الحالة بمنزلة البهائم والسباع فيمسك عن مقابلته و يحجم عن الاقتصاص منه حيث يعلم ان الكلب لو نبح عليه لم يكن يستجيز مقابلته على نبحه وكذلك البهيمة لو جمحت ورمحت لم يستحسن عقوبتها حيث انها غير عالمة بما تصنعه الا ان يكون جاهلا سفيها فان من السفهاء من يغضب على البهيمة اذا رمحته ويوجعها ضربا اذا اذته وربما عثر السفيه فشتم موضع عثرته و رفسها برجله * وأما الحكيم الوقور فلا يستحسن شيئا من ذلك واذا استشعر من خصمه انه بمنزلة البهائم حال الغضب صار هذا الاستشعار منه طريقا الى

ضبط

ضبط النفس الغضبية وزمها فان اذاه موذ بغير سبب فأداه ذلك الى حال يغضبه انف أيضا من الغضب وشعر في نفسه ان الغضبان والبهيمة هما بمنزلة واحدة فيعدل حينئذ الى مقابلة مؤذيه بما يقتضيه الرأى السليم من حيث لا يظهر فيه غضب ولا سفه

وينبغي لمحب الكمال أيضا ان يعود نفسه على محبة الناس اجمع والتودد اليهم والتحنن والرأفة عليهم والرحمة بهم فان الناس من قبيل واحد متناسبون تجمعهم الانسانية وتحليهم قوة الهيئة الاجتماعية التي هي في جميعهم وفي كل واحد منهم وبهذه المزية التي هي من متعلقات النفس الناطقة صار الانسان انسانا فالانسان اذا هو النفس العاقلة وهي جوهر واحد في جميع الناس. واذا كان الامر كذلك كان من الواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين وذلك في الناس طبيعة غريزية إذا لم تقودهم النفس الغضبية الى فعل مالا ينبغي فانه بهذه النفس يجب

الانسان الترآوس والكبر والاعجاب والتساط على المستضعف واستصغار الفقير وحسد الغني و بغض ذوي الفضل فيتسبب عن ذلك العداوات وتتأكد البغضة بين الانسان وصاحبه اما اذا ضبط الانسان نفسه الغضبية وانقاد لنفسه العقلية صارت له الناس احبابا واخوانا واذا اعمل فكره رأى الانسان ان ذلك واجبا فالناس اذا اما أن يكونوا فضلاء أو نقصاء فالفضلاء يجب علينا محبتهم لمبادي فضلهم والنقصاء يجب علينا رحمتهم لموضع نقصهم وبناء على ذلك يجب لمحب الكمال أن يكون محبا لجميع الناس متحننا عليهم رؤوفا بهم وخاصة الملك والرئيس فان الملك لا يكون ملكا ما لم يكن محبا لرعيته رؤوفا بهم لان الملك ورعيته بمنزلة رب الدار وأهل داره وما اقبح أن يكون رب الدار مبغضا لاهل داره لا يتحنن عليهم ولا يحب صالحهم

وينبغي لمحب الكمال ان يجعل همته فعل الخير مع جميع

الناس

الناس نافقا ما يفضل من ماله في ما يبقى له الذكر الجميل بعد موته متحرزا من فعل الشر وذلك لانه اذا حاسب نفسه حسابا مدققا علم ان من يفعل الشر فانما يفعله للخير يعتقد انه لا يصل اليه الا بذلك الشر ولربما كان ذلك غلطا واذا علم ان الامر على هذه الصفة كان واجبا أن يطلب الخير الذي يرومه من طريق مناسب غير طريق الشر اذا ان هذا هو الغرض المطلوب لا فعل الشر فأما ان كان تشرره لشفاء غيظ لحقه فليعلم انه متى سكن غيظه وجد ان ذلك المقصود بالشر غير مستحق لذلك الفعل ففعل الشر قبيح وخاصة بمن قد جمع بين الفضائل والعلم الا أن يكون تأديبا على جرم أو اقتصاصا من جان فان هذه الحالة تكون مستحسنة محمودة بل لا تعد شرا لان ذلك الشر انما يصل الى الجاني فقط ويكون منه نفع عام لجميع الناس بان يرتدع به أمثاله من الجناة فتكون المنفعة به أكثر فمن أجل هذا لا يعد شريرا من فعل ذلك * واذا تعود الانسان

فعل الخير والفه وتجنب الشر واستوحش منه انف من الاخلاق المكروهة التي تعد شرا كالحسد والحقد والخبث والخديعة والنميمة والغيبة والوقيعة وامثال ذلك واذا فكر العاقل علم انها جميعها غير مفيدة له نفعا بالكلية وهي مع ذلك تشنيه بقبح سيرتها واذا كان محبا للتمام راغبا في الكمال كان من الواجب عليه أن يتجنب تلك الاخلاق المذمومة

وينبغي لمحب الكمال أن يعتقد انه ليس شئ من العيوب والقبائح خافيا عن الناس ومهما اجتهد فاعل الشر في ستر شره فلا ينبغي أن تطمع نفسه في اخفاء فعل قبيح يظن انه يكتتم عن الناس حتى لا يقف عليه أحد * ويجب أن يعلم أيضا ان الناس بالطبع موكلون بتتبع عيوب الناس وتعييرهم بها وهذا طبع غريزي في سائر الناس والسبب فيه ان الانسان مالم يبلغ التمام فليس يخلو من تقصير يعاب به وبناء على ذلك يسوءه أن يرى غيره أفضل منه ويود لو أن

تكون

تكون الناس كلهم نقصاء ليساووه في النقص * وقد يظن
كثير من العظماء والرؤساء ان عيوبهم مستورة عن أعين
الناس غير ظاهرة لهم وذلك لموضع هيبتهم وعظم سطوتهم
ويظنون ان حاشيتهم وخواصهم لا يجسرون على
اظهار أسرارهم ولو وقفوا على شيء منها وهذا نهاية الغلط
لان خواص الامرآء وحاشيتهم كما انهم عندهم ثقات
امناء كذلك لكل واحد منهم خواص وثقات يخرج اليهم
أسراره وهذه الحالة طريق عمومي لانتشار معائب الرؤساء
والعظماء الذين يظنون انها مستورة عن أعين الانام
والعلة في ظنهم هذا الوهمي هو انهم لا يسمعون احدا
يذكرها لهم ولا أحدا يفحصهم عنها فيتوهمون بذلك انها
خفية عن الناس بالكلية ولهذا اذا أحب الانسان أن
يتأكد ان عيوبه غير خافية يعود الى نفسه فينظر هل
يعرف لاحد عيبا كان يستره ويخفيه فانه يجد للناس عنده
عيوبا كثيرة قد أجتهدوا في سترها وحرصوا على صونها

ومنهم من يظن انها خفية ومنهم من يعلم انها قد انتشرت
بعد الستر فاذا علم بانه عارف باسرار كثيرين من الناس
كانت مستورة فبالواجب أن يعتقد ان عيوبه هو أيضا غير
خافية ولا مكتتمة وان الناس يعرفون من عيوبه أكثر
مما يعرف هو من عيوبهم ولهذا ينبغي لمن أحب الكمال أن
يعتقد ان عيوبه ظاهرة ولو اجتهد في اخفائها وانه ليس
يتام من عرف له عيب فلا طريق الى التمام الا باجتناب
العيوب بالكلية والتمسك بالفضائل في سائر الامور
وهذه الرتبة غاية تمام الانسانية ونهاية الفضيلة البشرية
وواجب على كل انسان الاجتهاد في بلوغها واستفراغ
الوسع في الوصول اليها لان التمام مطلوب لذاته والنقص
مكروه لعينه * واحق الناس لطلب هذه الرتبة وأولاهم
بالتجمل بها البلوغ هذه المنزلة الملوك والرؤساء لان الملوك
والرؤساء اشرف الناس واعظمهم قدرا وما أقبح
بالشريف العظيم القدر أن يكون ناقصا فالملوك إذا
ينبغي

ينبغي أن يكونوا أشد الناس حرصا على بلوغ الكمال لان الملك اذا كان تاما جامعا لمحاسن الاخلاق محيطا بجميع المناقب الحسنة كان ملكا بالطبع ، واذا كان ناقصا كان ملكا بالقهر وما أولى بالملك أن يرغب في الرياسة الحقيقية لا في التي تكون بالقهر والشرف الذاتي فالواجب اذا أن يصرف الملك همته في اكتساب الفضائل وانشاء المحاسن ويطلب الغاية من المكارم ويستصغر الكثير منها حتى يحوز جميعها ولا يرضى بالنهاية حتى يزيد عليها فانه ان رضي برتبة فوقها رتبة لم يصر ابدا الى التمام واذا طلب الكمال فاول ما يجب عليه أن يعتاده في نفسه هو عظم الهمة فان عظم الهمة يشنع في عينيه كل رذيلة ويحسن له كل فضيلة فاذا عظمت همته بذلك سلم من الاعجاب بملكه ورأى نفسه وهمته أعظم قدرا من أن يستكثر ذلك الملك واذا احتقر الملك ملكه الذي به عزته وعظمته طلب لنفسه ما يعظمها بالحقيقة وبناء على ذلك

يرى بان النفس لا تعظم الا بالفضائل * ثم ينبغى له أيضا أن يكره الملق و يبغض المتملقين و ينهاهم عنه وملاك الامر فى ذلك جميعه أن يعرف عيوبه حتى يمكنه توقيها والتحرز منها وهذا فى الملوك صعب جدّا وذلك لان الانسان بالطبع يخفى عليه كثير من عيوبه مالم ينبهه عليها آخر والذى يخفى على الملوك هو أكثر وسببه ان العوام والسوقة يبكتون على عيوبهم ويوبخون على ذنوبهم و يعيرون بنقائصهم فهم بالضرورة يعرفونها * وأما الملوك فلا يجسر احد على تبكيتهم ولا يقدم احد على نصحهم وذلك لان الناس أجمع يقصدون التقرب الى الملوك بالتملق فلا يقولون لهم الا مايحبون لينالوا الحظ عندهم فعيوب الملوك ابدا خفية عنهم

و ينبغى للملك اذا أحب أن يتنزه عن العيوب و يتطهر من دنسها أن يتقدم الى خواصه وثقاته ومن كان يركن الى عقله وفطنته من خدمه وحاشيته و يأمرهم أن

يتفقدوا

يتفقدوا عيوبه ونقائصه ويطلعوه عليها ويعلموه بها
وينبغي أيضا أن يتلقى من يهدى اليه شيئا من
عيوبه بالبشاشة والقبول ويظهر له الفرح والسرور
بل المستحسن من الملك أن يجيز الذي أوقفه على
عيوبه أكثر مما يجيز المادح على مدحه ويشكر من ينبهه
على نقصه فاذا لزم هذه الطريقة وعرف بها يسرع أصحابه
وخواصه الى تنبيهه على عيوبه وايقاظه على مقابحه
فيأنف حينئذ من الرذائل ويبتعد من النقائص ويأخذ
نفسه اذ ذاك بالتنزه من العيوب ويقهرها على التخلص من
دنسها فاذا فعل ذلك وتوفر على اقتناء الفضائل والزم نفسه
التخلق بالمحاسن ولم يرض من منقبة الا بغاياتها ولم يقف
عند فضيلة الا وطلب الزيادة عليها واجتهد في ما يحسن
سياسة نفسه عاجلا ويبقى له الذكر الجميل آجلا لم يلبث
أن يبلغ الغاية من التمام ويرتقي الى النهاية من الكمال
فيحوز السعادة الانسانية والرياسة الحقانية ويبقى له

حسن الثناء مؤبدا وجميل الذكر مخلدا

فقد أتينا فيما سبق على صفة الانسان التام الجامع لمحاسن الاخلاق والطريقة التى توصله الى الرتبة العليا وتحفظ عليه المنزلة الفضلى وقدمنا ما يجب تقديمه من سياسة الاخلاق امام الى هذا الكتاب فاأولى من نظر فى تلك الاقوال وتصفحها وفهم مضمونها وتدبرها وأخذ نفسه باستعمال ما تبين فى فصوله وساق أخلاقه بالتطرق الى ما فنن فى ابوابه واجتهد كل الاجتهاد فى تكميل نفسه واستفرغ غاية الوسع فى طلب التمام * وما اقبح النقص بالقادر على التمام والعجز عن المقتدر على الكمال

والحمد لله على كل حال

تم

(٧٩)

تم طبع كتاب تهذيب الاخلاق للعلامة

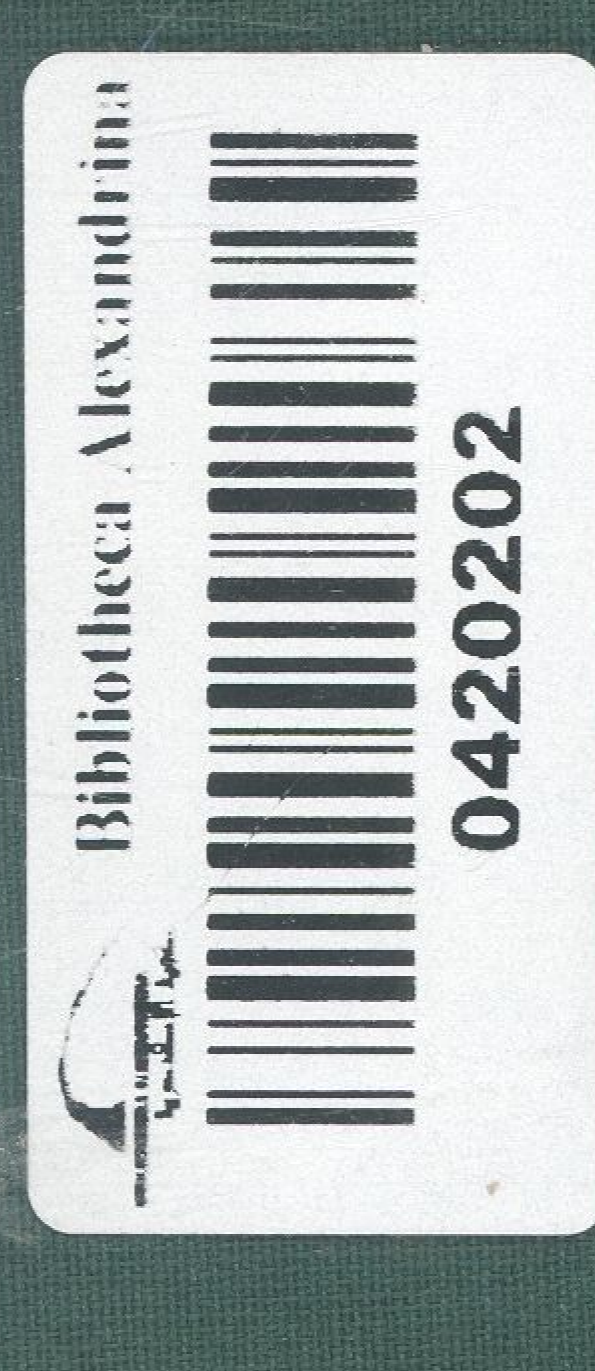
الشهير يحيى بن عدى السريانى الارثوذكسى

بالمطبعة القبطية الاهلية

سنة ١٥٨٨ للشهداء

الاطهار




Bibliotheca Alexandrina
04202002